أسطورة الإنسان والبحيرة

أسطورة الإنسان والبحيرة، رواية
الطبعة الثانية ٢٠١١
تأليف: دلال خليفة
الغلاف: تصميم وتصوير فوتوغرافي: المؤلفة
أداء: جميل عبد الواحد
حقوق الطبع محفوظة للمؤلفة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الرواية ليست صورةً فوتوغرافيةً للواقع ولكنّها كاريكاتير له، والكاريكاتير – كما أراه – قد لا يكون دائماً نكتةً أو صورةً مُضحكةٍ ولكنّه دائماً صورةٌ تعبّر عن الواقع بشكلٍ ساخرٍ وصريحٍ إلى حدِّ تسمية الأشياء بأسمائها، وشديد الحرّيّة إلى درجة التطرَّف في التعبير، وشديد التطرِّف في التعبير إلى درجة الخروج عن حدود الواقع. وقد وصفت هذا العمل بأنّه "كاريكاتير" لاشتراكه مع الصورة الكاريكاتورية في التحرُّر من الواقع وحدوده، وليس ذلك تحديثاً بقدر ما هو عودةً مؤقتةً إلى شكلٍ من أشكال الأدب القديمة التي كانت توظّف الخيال بشكلٍ أكبر، وتستعين بالخوارق في التعبير عن الفكرة الأدبية. وبما أنَّ جانباً من هذا العمل يأخذ شكلاً أسطورياً إلى حدٍ ما – حيث يقدِّم تفسيراً عابِثاً لظاهرةٍ معيّنةٍ كما تفعل بعض الأساطير – فمن الطبيعيّ أن يُختار له زمنٌ قديمٌ، وقد أخذت أسماء شخصياته من التراث العربيّ ولكنّ ذلك لا يجعلها عربيّة بالضرورة إذ يوجد بها بعض الأشياء التي أخذت من حضاراتٍ أخرى مثل ضرائب المواد الاستهلاكيّة مثلاً.

قد تلتقي خطوط الرواية بخطوط الواقع تارةً وتبتعد عنها تارةً أخرى، لا لطمس صورته ولكن لإبراز بعض جوانبه بشكلٍ أوضح – وإن كان هذا الشكل يعبر في النهاية عن رؤيةٍ شخصية – كما يبتعد رسّام الكاريكاتير بخطوطه الساخرة عن حدود الملامح الواقعية إمعاناً في توضيحها.

المؤلفة

الفصل الأول

١

في أحد أيّام الربيع بشارع السدر وقفت حليمة تلتقط غسيلها الجاف من على الحبل في فناء منزلها وتضعه في سلّة من الخوص في يدها وبجانبها طفلها الصغير، فإذا بشلّالٍ من الماء يندفق عليْها ويبلِّلها هي وسلّتها التي رصَّت فيها الملابس الجافة، فوقفت مندهشةً برهةً ثم انطلقت بسلتها إلى الباب وفتحته لترى قبالته رجُلاً قد اعتلى سلّماً وبيده دلو ماءٍ فارغٍ بادرها بالاعتذار، ولكنّها انطلقت تشتمه بغضبٍ شديد، فجاء رجلٌ آخر وحاول تهدئتها فقالت بغيظ: "أريد أن أعرف لماذا." فسألها الرجل:

- هل أنت ساكنةٌ جديدةٌ في هذه المنطقة؟
- إنّني هنا منذ ثمانية أشهر.
- لذا فأنت لا تعرفين إجراءات يوم التنظيف.
- يوم التنظيف؟!
- نعم، ألم تسمعي عنه من جيرانك؟
- لا، فقد أصيبت جارتي بصداعٍ حادٍّ في آخر مرةٍ زارتنا فيها منذ ثلاثة أيام، ولم أرها منذ ذلك الحين، ما هو يوم التنظيف؟

- إنّنا ننظف بعض شوارع المدينة وما يحيط بها من جدران منازلٍ بشكلٍ مختلفٍ عن المعتاد ونزيِّنها كلَّ عامٍ في مثل هذا اليوم، أنظري.

فخطَت المرأة بضع خطواتٍ خارج المنزل وأخذت تتلفّت حولها بانبهار. كان عمّال التنظيف يملؤون الشارع والطرقات، بعضهم يكنس الأرض وبعضهم يغسل الجدران وبعضهم يرش الأشجار على جانِبيْ الطريق بالماء ويشذِّبها، وبعضهم يُعلّق الزينات على الجدران التي تم غسلها والأشجار التي ازدادت أوراقها إخضراراً بعد أن تم رشها، وقد امتلأ المكان كلّه برائحة التراب المبتل والجوِّ النظيف. سألت الرجل باهتمام: "ولكنْ لماذا؟" فأجاب الرجل: "إنّنا ننظّف كلَّ الشوارع التي يمر بها موكب المَلك ونزيّنها في اليوم الذي يسبق مروره مباشرةً." تهلَّلت أسارير المرأة عندما سمعت ذكر المَلك وقالت وهي لا تكاد تُسيطر على ابتسامتها الواسعة:

- المَلك؟ هل سيمرُّ المَلك غداً من أمام بيتنا؟

- نعم.

- وسأراه وجهاً لوجه؟

- نعم، إذا وجدت لكِ مكاناً بين الناس.

فأخذت المرأة تتلفَّت حولها بسعادةٍ ثم وقع بصرها على سلّتها التي تحملها ورأت ملابسها المبلَّلة فعاد لها عبوسها وقالت: "ولكن لماذا تسكبون الماء في بيوت الناس؟ لا أظنُّ أن المَلك سيطلُّ داخل المنازل." فقال الرجل مُعتذراً: "ذلك كان خطأً غير مقصودٍ فهذا العامل جديد.." فتجاهلته المرأة ودخلت بيتها وهمهمت وهي تغلق الباب خلفها: "لا عجب أن سكان البيت السابقين غادروه إلى غيره!"

فسأل الطفل: "هل ذهبوا إلى مكانٍ ليس به مَلكٌ يطلّ في المنازل يا أمّي؟" فالتفتت حليمة إليْه وهمَّت بالإجابة إلّا أنّها انتبهت إلى فحوى السؤال الذي

عزَّزه الطفل بنظرةٍ فضوليةٍ ملحَّةٍ في عيْنيْن واسعتيْنِ تأمَّلتهما برهةً وشعرت برغبةٍ ملحَّةٍ في تجاهله هوَ أيْضاً، فتركته وذهبت إلى المطبخ.

***

في أحد منعطفات شارع السدر كان الهدوء يسود المكان مع إطلالة العصر – بعد انتهاء أعمال التنظيف – عندما انفتح باب بيتٍ صغيرٍ يتوسّط الطريق، وخرج منه مختار وأغلقه خلفه وهو يُصفِّر أنغاماً مرحةً واجتاز الشارع بحيويّةٍ شديدةٍ وعيْناه تنظران إلى الأمام بإشراقٍ بينما الهواء يُداعب خصلاتٍ من شعره الغزير. كان مختار من القلائل الذين يتمتَّعون بالرضى التامِّ عن النفس حتّى لتكاد ذراعه تمتدُّ فوق كتفه لتربت على ظهره لفرط رضاه عن نفسه، وكان من القلائل الذين يتمتّعون بالاطمئنان إلى أنّهم قد استغلّوا كلَّ الفرص المُتاحة لهم بحكمةٍ بحسن اتّباعهم للخط الذي رسموه لحياتهم بروِيَّةٍ وبعد تفكيرٍ دقيقٍ، وإلى أنّهم لم يُخطئوا أبداً، فغدوْا ولا سياطَ ندمٍ أو لومٍ تُلهب ضمائرهم وتكدِّر صفوهم، وغدوْا ولا همومَ تُثقل خطواتهم وترسم الألم على وجوههم. وكذلك كانت السمعة التي اكتسبها مختار في المدينة على مدى سبع سنين تملؤه فخراً يُكوّن في عيْنيْه ومشيته ذلك الإشراق وتلك الحيويّة. لقد أصبح كثيرٌ من سكّان المدينة ينظرون إليْه بإكبارٍ ويتجنّبون إغضابه بعد أن أثبت للجميع أنّه ذلك الشاب القويّ بعضلاته وبشخصيته، والمنتصر دائماً في أيِّ خلافٍ بقوَّته وحِنكته.

بعد مدّةٍ من السيْر في شارع السدر مرَّ خلالها بمنعطفاتٍ فسيحةٍ وأخرى ضيّقةٍ بين المنازل القديمة الطراز والمتجاورة، تجاوز بيتاً بسيطاً أبيض اللون يُجاور منعَطفاً مشى فيه حتّى آخره حيْث توقَّف أمام بيت صديقه عمرو. هناك كان عمرو جالِساً بمحاذاة دُريدٍ وأمامهما آدمُ وهيْثم. وكان أولئك الأصدقاء

الذين يجتمعون في بيت عمرو كلَّ يومٍ هم من يأنس إلَيْهم مختار مُذ قدِم من قريته إلى المدينة منذ سبع سنين ليدرُس على أيْدي معلّميها. جلس مختارٌ إلى جانب آدمَ مستقبلاً عمرو الذي كان أكثر أفراد المجموعة حِكمةً ورزانة، والذي كانوا يلجأون إلَيْه في المواقف التي تتطلّب نُصحاً ومشورة. وكان ذلك يُسعده إذْ يدرّبه على دوْر المعلّم ويقرّب إلَيْه حلمه بأن يكون معلّماً عند إنهاء دراسته الذي بات وشيكاً، بينما كان الباقون يهدفون إلى صقل شخصياتهم بالثقافة والعلم لشغل مناصبَ كَتبةِ ديوانٍ وما إلى ذلك. وبالرغم من اختلاف شخصياتهم وطباعهم إلّا أنّه كانت تجمعهم أُلفةٌ وموَدَّةٌ كبيرةٌ وشعورٌ بانتماء كلٍّ منهم إلى المجموعة.

بعد أن استقرَّ مختارٌ في مكانه بجانب آدم نظر إلَيْه عمرو قائلاً: "لقد اقترح دُريدٌ أن أشرح درس النحو الذي ألقاه المعلّم اليوم، فما رأيك يا مختار؟" فأجاب مختارٌ بلا تردد: "لا، لا نريد درْساً آخر، كفاك تدرُّباً علَيْنا يا عمرو." فقال دريدٌ محتجاً: "ولكنِّي لم أفهم منه شيئاً." فرد مختارٌ بلا اكتراث: "ستفهم فيما بعد." ثم نظر إليه وقال: "لا أعلم لماذا واصلت دراستك رغم كُرهك لها." فظهرت نظرةٌ متسائلةٌ على وجه دُريدٍ وقال: "كُرهي؟ إنَّني لا أكرهها." فردَّ مختار: "ولكنّي أشعر دائماً أنّك تعاني، لماذا لم تعمل في دكّان أبيك كما كان مُتوقَّعاً بعد إنهائنا المرحلة الثانية؟ لماذا واصلت معنا؟" فقال دُريْد: "كلُّ هذا لأنّني اقترحت المراجعة؟ حسناً ماذا تريدنا أن نفعل إذاً؟" فقال: "ما رأيُكم في الذهاب إلى السوق؟ أريد أن أشتري حلّةً جديدةً لأحضر موكب المَلك غداً." تساءل هيْثم في دهشة: "أنت؟ لماذا؟ أنت لم تعبأ بموْكب المَلك قط." فقال آدم مبتسماً: "ولكنّه قرَّر أن يهتمَّ عندما رأى ابنة الوزير الجديد التي تربطها بالمَلك صلة قرابة." فأجاب مختار: "نعم، لقد أخبرتكم كيْف كانت المسكينة تطلُّ حائرةً من هَوْدجِها بعد أن سقط سائسها، فسبقْتُ

جميع من كان معها إلى إسعافه.. وعندما التفتُّ إليها وجدتُها تنظر إليّ بإعجابٍ وهي تبتسم." ثم ابتسم وكأنّه ينظر إلى ابنة الوزير وأضاف: "لقد كان إعجابها بي وبشهامتي واضحاً." فقال عمرو باسماً: "ما هذا الغرور! لماذا لا تقول إنّك أعجبت بها وبجمالها؟" فرد مختار بلا تردُّد: "لأنّ إعجابها بي ضروريٌّ وإلّا فلن تقبلني زوجاً." ضحك الجميع من مختار الذي نظر إليْهم مستغرباً وقال: "ولكنّي لا أمزح، سأعمل في وظيفة كاتب ديوانٍ وأكون قريباً من والِدها الذي سأكتسب ثقته لا محالةَ وأنتزع إعجابه، ومن ثَمَّ إعجاب المَلك الذي سيوصِلني إلى مناصب عُليا في المستقبل." فقال هيْثم ساخراً: "لذلك قرَّرت أن تقف في استقبال موكب المَلك غداً." أجاب مختار: "نعم، ويجب أن يكون منظري لائقاً وأنا أقف في موكبه، هيّا بنا." فتجاهل عمرو طلب مختار وقال:

- ولكنَّنا ظننّا أنّك ستتزوّج سلمى.
- ولماذا أتزوّج سلمى؟
- لأنَّك تُحبُّها مُذ قدمتَ من القرية.
- أحبُّها ولكنْ لماذا يتعيَّن عليَّ أن أتزوَّجها إذا وجدتُ من هِي أنسب لي منها؟

نظر إليه عمرو مُستغرباً فواصل هو:

- في حياة كلِّ إنسانٍ إنسانٌ يشعر بالقُرب الشديد منه وبالمودة تجاهه ويثق به ويعتبره ملجأً.. قد يكون هذا الإنسان أباً أو أماً أو أخاً أو صديقاً أو ايَّ شيء، ولكنّه ليس من الضروري أن يكون زوجةً، وسلمى هي الإنسان الذي أعتبره ملجأً لي وأظنُّ أنّني ملجؤها، ولكنَّ ذلك لا يعني أنّني أنسبُ رجلٍ لها وأنّها أنسب امرأة لي، ولا يجب أن نجعل عاطفتنا تسيّرنا بدلاً

من عقلنا. يجب أن نترفَّع عن العواطف إذا تعارضت مع مصالِحنا التي يراها لنا عقلنا.

- ولكن، ألا تشعر أنَّك تظلمها؟
- لا، إطلاقاً.
- أظنُّ أنَّك ستكون من النوع الذي يظلِم الناس بحسٍ متبلّدٍ يا مختار.
- لا أعتقد أنّني أظلِم أحداً إذا حاولت أن أبحث عمّا هو أنسب لي، وعلى ذكر المناسبة، أظنُّ أن سلمى تناسبك أنت أكثر مما تناسبني يا عمرو، لأنّك تريد أن تكون معلّماً مثل والدها الذي قد يساعدك في هذه المسألة.

عند هذا الحد بدا على عمرو استهجانه لمنطقه فقال له: "قم يا مختار. اذهب إلى السوق واشتر ما تريد ودعنا نبدأ درسنا." نهض مختار واتجه إلى الباب ثم خرج وسار مُبتعداً عن البيت وهو يصفّر بمرح.

***

في تلك الأثناء أتت جارة حليمة - سُعدى زوجة سفيان المستشار المعزول- تزورها. ولم تكن سُعدى لتزور حليمة وأمثالها من الناس قبل أن يفقد زوجُها منصبه، ولو رأت آنذاك زوج حليمة السمّاك عائداً من البحر بشباكه اللّزجة ولو من بعيدٍ لسدّت أنفها ومنعته من الوقوف في مجال رؤيتها. ولكنّها عرفت تلك العائلة عندما اضطر زوجها إلى بيع بيته الفخم والسُكنى في ذلك البيت المتواضع لسدِّ احتياجات بيْته من دون الاضطرار إلى امتهان مهنةٍ لا تليق به كمستشارٍ سابقٍ للمَلك. ولم تجد بداً من مخالطة الجيران البسطاء وتجاذب "أطراف الشائعات" معهم، ففي النهاية يتساوى خبر خلافٍ بيْن أحد الوزراء وزوجته في الإثارةِ بخبر سرِقةِ دجاجةٍ من فناء بيت الخباز.

بعد أن حيّت سُعدى حليمة وعامراً زوجها المُسنّ الذي مرّتا به في الفناء وهو يُصلح شباكه في ركنٍ من الأركان جلست المرأتان في حجرةٍ صغيرةٍ مُطلّةٍ على ذلك المكان الذي اتخذه عامرٌ مَشغلاً له. ثم تكلّمتا عن أحداث اليوم وإجراءات التنظيف. وأخذت حليمة تشكو عمّال التنظيف لسُعدى قائلة: "لقد أغرقوا فناء المنزل بالماء واضطروني إلى غسل الملابس مرَّةً أخرى." فردَّت سُعدى: "ما أسخف ذلك!" فأكملت حليمة: "لقد سبّبوا لنا إزعاجاً كبيراً." فهزَّت سُعدى رأسها وهي تقول: "ما أوقح ما فعلوا!" فتدخَّل عامرٌ زوج حليمة قائلاً وهو منهمِكٌ في حِياكة شبكة صيدٍ: "والماء الذي سُكب قد يؤثّر في دعائم بيْتنا ويضعفها." فقالت سُعدى بصوتٍ تكلّفت رفعه ليصل إلى عامرٍ وشباكه: "ما أسوأ ما فعلوا!" فقال وهو ما يزال ينظر إلى خيوط شبكته: "وقد ينهدِم علَيْنا لقِدَمِه بسبب تلك المياه الغزيرة التي أغرقوا بها الأرض والجدران." فردّت بشكلٍ آليّ: "ما أشدَّ خطورة ذلك!" فأردف: "ويقولون إنّهم يفعلون ذلك كل عام!" وقبل أن تجد سُعدى ردّاً مناسباً على ذلك دخل ابنهما – الذي لم يتجاوز السادسة من عمره – وقال: "ولولا أنَّ أمي مسحت الماء في الحال لتعرّضت للوقوع ولكُسرت ساقي أو ذراعي من جراء ذلك." فهزَّت سُعدى رأسها مستنكرةً وقالت كالببغاء: "ما أفظع ما فعلوا!" فأكمل: "أو لمتّ!" فأمسكت سُعدى جانِبيْ رأسها تحاول أن تُنقِذه من التصدّع بينما أكمل الطفل: "ولو انزلقت رِجل أبي عليْه ووقع لمات في الحال لأنّه رجلٌ عجوز." فقالت سُعدى وهي ما تزال مُمسكةً برأسها: "عُدتُّ عاجزةً عن سماع المزيد عن ذلك الفعل الشائن الذي ارتكبه أولئك العمّال المهملون." فنظرت إليها حليمة نظرةً ذات مغزى وقالت: "هذا لو كان ما فعلوه إهمالاً." فسألت سُعدى بلهجةٍ تقطر فضولاً: "هل تعنين أنّهم قصدوا إيذاءكم؟" فقالت حليمة بشكلٍ يوحي بالغموض: "من يعلم!" فتدخَّل عامرٌ في الحديث قائلاً: "وهل كان

خفض رواتب الجنود إهمالاً!" فأجابت سُعدى: "لقد سمعت أنَّ المَلك قرَّر خفض رواتبهم لإقامة مُستشفيات جديدة." فقال عامر: "سنرى." فتنهَّدت سُعدى وقالت: "وكذلك لم يكن عزْلُ زوجي عن منصبه إهمالاً." نظرت إليها حليمة بفضولٍ شديدٍ وحاولت تجاهل سؤالٍ مُلحٍّ كان يقف على حافّة لسانها كلّما رأت سُعدى، وكانت دائماً تتمكن من ابتلاعه في آخر لحظةٍ قبل أن يسقط، ولكنّه في ذلك اليوم تطرّف كثيراً بعد أن سمعت سُعدى نفسها تذكر ذلك الموضوع، وتدلّي بحيث لم تستطع ابتلاعه فانفتح فمها رغم إرادتها وسمعت نفسها تقول: "ولكنْ لماذا عُزل زوجك؟" هنالِك أهمل عامرٌ خيوط شبكته حتى أوشكت على السقوط من يده، ووجّه بصره وانتباهه وكلَّ كيانه إلى سُعدى التي قالت: "لا أعلم! ولا أحد يعلم السبب في عزله مع ما كان يُظهر من كفاءةٍ في العمل." التقط عامر إبرته وخيوط شبكته – وكانت قد سقطت منه في النهاية – بعد أن خاب فأله في سماع حكايةٍ مثيرةٍ وقال: "ربّما وشى به أحد، تعلمين أنّ الناس يُسيئون الظنَّ دائماً ويفسّرون كلَّ فعلٍ يصدر عن غيرهم بما لا يحتمله. إنّهم دائماً يهوِّلون ويبالغون ويروّجون شائعاتٍ كاذبة." فتنهدت سُعدى وقالت: "صدقت! صدقت حقاً يا عامر."

آنذاك لم تكن سُعدى قادرةً إلاّ على حفظ سرٍّ واحدٍ هو سرُّ عزل زوجها الذي تتكتّم عليه طواعِيةً ويحلو لها أن يظنُّ الناس أنّه عُزل بلا ذنبٍ وأنّه مظلوم، وإنْ كانت تُقدّر للمَلك سُموَّ خُلُقه الذي جعله يمتنع عن إخبار أحدٍ غيْرِ زوجها بأسباب عزله. ولم تكن تحاول التحدث عن السبب الحقيقيِّ حتى مع زوجها الذي أصبحت نظرته لها تتضمَّن لوْماً تراه بوضوح.

وفي سوق المدينة الذي يعجّ بالباعة والمُتبضِّعين أمام الدكاكين التي اصطفت بجوار بعضها بعضاً وشغَلت حيِّزاً كبيراً من الطريق العامّة وعدداً

من المنعطفات فيه كان مختار يتجوّل واضعاً يديْه في جيْبيْه وهو يلتفت تارةً إلى اليمين وتارةً إلى الشمال لكيْ لا يفوته شيء. ثم دخل طائفةً من الدكاكين واستعرض ما فيها من حُلَلٍ فلم تعجبه أسعارها. وفيما كان يتفحص بعض الملابس في أحد الدكاكين ويفكّر في أسعارها راودته رغبةً في صرف النظر عن شراء حلةٍ جديدةٍ خاصةً وأنّه لم يكن واثقاً تماماً من إمكانية حدوث ما خطَّط له، فناول ما في يده بصمتٍ للبائع الذي نظر إليه مستغرباً، وترك الدكان ثم غادر السوق. وما إن اقترب مغيب الشّمس حتّى كان مختار جالساً ثانيةً بين أصدقائه مُسنِداً رأسه بكفّه وهو يستمع بمللٍ شديدٍ إلى درس نحوٍ يُلقيه عمرو، إلى أن جاء وقت الانصراف فتمطّى ثم مشى بتكاسُلٍ إلى خارج البيت، واتّخذ طريقه إلى منزله مارّاً بالبيت الأبيض ذي الستار الأخضر على نافذته حيث كانت سلمى تنتظر أن يقترب مختار من النافذة ليُخبِرها بأيِّ شيءٍ كما كان يحدث أحياناً، بعد أن غيَّر عادته في المرور عليها لتحيَّتها يومياً في ذهابه وإيابه، ولكنه تجاوز بيتها دون أن يلتفت إليه، كعادته في الفترة الأخيرة ومضى في طريقه.

***

وجاء اليوم الكبير واقتربت ساعة مرور موكب المَلك فاحتشد الناس على جانِبي كلِّ طريقٍ يسلُكه الموكب، وجلس بعض الناس على الأرض وأمام أبواب المتاجر والمنازل بعد أن تعِبوا من الوقوف وأخذوا يتناولون أطعمةً خفيفةً وهم جالسون بملابسهم الجديدة وقد بدا عليهم الإشراق وكأنّهم في يوم عيد. وأمام بيت عامر السمّاك وقفت حليمة وابنها وانضم إليهما عامرٌ بعد قليلٍ. ثم خرجت سُعدى من دارها ووقفت مع حليمة وأسرتها وقدمت إليهم أكياساً بها مكسراتٍ وزبيب. سألت حليمة: "لماذا لم يأت زوجك ليشاهد

الموكب؟" فقالت سُعدى: "وهل تعتقدين أنه يحبّ رؤية الملك بعد أن جرّده من منصبه". فقال عامر وهو يهزّ رأسه مُظهراً استهجانه لعزله: "من يلومه!" فقالت سُعدى مبرِّرة رغبتها في مشاهدة موكب الملك الذي عزل زوجها بعد أن أخجلتها نبرة عامر التي عبّر بها عن تعاطفه الشديد مع زوجها: "ولولا أنّني لا أطيق الجلوس في البيت عندما يكون كلُّ الناس خارج بيوتهم، وأنّني لا أستطيع الاكتفاء بسماع الأخبار عندما يُتاح لي أن أراها تحدث أمام عيْنيَّ لما أتيت." فقالت لها حليمة بلهجةٍ شديدة التأييد: "ومن يلومك!" ولم تكن سُعدى هي الوحيدة التي لا تستطيع مقاومة تلك الرغبة إذ كان معظم الناس في تلك المدينة يحرصون على رؤية موكب المَلك البهيج الذي يروْنه مرَّةً واحدةً في منتصف الربيع كلِّ عامٍ كما يروْن الأزهار الموسميّة الربيعيّة.

وبدأ سيْر الموكب الذي توسطته رُكوبة المَلك وهي حِصان ضخمٌ في غاية الجمال سِرجه منقوشٌ ولِجامه مُرصَّعٌ بالأحجار الكريمة، والمَلك جالسٌ على ظهره بملابسه الفاخرة وبُردته الموشّاة وأمامه وخلفه دوابّ كثيرة أصغر حجماً وأقلُّ جمالاً من حصانه تحمل الكثير من العساكر والجنود وأفراد الحاشية، وأمام تلك الدوابّ بسروجها الأخّاذة المنظر وخلفها جيْشٌ من المشاة من أتباع الموْكب وقد لبسوا حللاً فاخرةً تتشابَه ألوانها في الصفِّ الواحد وتختلف عن ألوان حُلل الصفوف الأخرى، وقد تقلَّد أولئك المشاة السيوف والخناجر، أما من كانوا في المقدمة والمؤخرة فقد حملت صفوفٌ منهم طبولاً يدقُّونها دقاتٍ منتظمة لها هيْبة وصفوفٌ حملت أبْواقاً ينفخون فيها نغَماتٍ تتناسب ودقّات الطبول. وفي وسط الموْكب كان المَلك رافعاً يده طوال الوقت يُحيِّي شعبه الذي تزاحم أفراده على الأماكن التي تتيح رؤيةً أوضح لوجه

الملك الباسم الذي تستقبله وجوهٌ مبتسمةٌ بسعادةٍ على جانبي الطريق الطويل الذي يسير فيه الموكب.

عندما وصل الموكب إلى بيت حليمة وزوجها السماك أخذ أفراد الأسرة الصغيرة ومعهم سُعدى يُلوّحون بأيديهم محيّين المَلك وهم يبتسمون في بهجةٍ شديدةٍ كبقيّة المصطفّين على جانبي مسار الموكب الذين ما إن يسمعون الأبواق من بعيدٍ حتى يهبّوا واقفين، تاركين ما يأكلون أو يشربون لكيْ لا يفوتهم شيءٌ من موكب ملكهم. وعندما اقترب الموكب من نهاية الشارع أخذ مختار – وقد وصل متأخراً – يُحاول دسَّ نفسه بين صفوف الجماهير ويدافعهم إلى أن وقف خلف الصفَّ الأمامي، ولولا أنّه لم يكن مُرتدياً مَلبساً جديداً كملابس الآخرين لوصل إلى الصّفِّ الأمامي، وأخذ ينظر إلى الموكب المُقترب ببهجةٍ متفحّصاً وجوه المشاة من جنودٍ وحرّاسٍ إلى أن اقترب الحصان المَلكيِّ فاتسعت ابتسامته وأخذ يُلوّح بيديه الاثنتين للمَلك الذي ظلّ رافعاً يده للجماهير يُحيِّيهم. أحسّ مختار بانتعاشٍ لمرأى الملك، وعرف سبب حرص النّاس على التجمّع كلّ عامٍ لرؤية موكبه. لقد كانت أصوات المَعازف وألوان الموكب تشيع بهجةً كبيرةً في النفس، كما أنّ رؤية كبير البلاد تُدخل السرور إليها. ولكنْ بالإضافة إلى ذلك كلّه فقد كانت لمختار أسبابه الخاصة التي تجعل رؤية المَلك تُبهجه في تلك الأيام... لقد شعر فجأةً أنّه يُحب ذلك الرجل. أما ذلك الرجل فلم يلاحظ مختاراً وسط تلك الحشود من أفراد الشعب، وإنّما ترك يده مرفوعةً تحيّيهم وابتسامته الودودة تصل إلى كلّ فردٍ وكأنّها موجَّهةً إليه بشكلٍ خاص، حتّى تجاوز الموكب شارع السّدر وابتعد عنه متجهاً إلى سوق المدينة.

بعد أن انفضّت الجماهير بانتهاء مسيرة الموكب أخذ مختار يتمشّى في الطرقات التي تدلّت الزينة مُهَلْهَلَةً من جدرانها وأشجارها بعد أن عبث بها الصغار، والتي بدت كأنّها مهجورةً بعد أن كادت تخلو من الناس وبعد أن اتسخت الأرض بالمُخلَّفات وبقايا الطعام الذي أحضره الناس معهم ليأكلوه أثناء انتظار الموكب. ثم وضع يديه في جيْبيْه وأخذ يصفّر بمرحٍ وهو يمشي شاعراً أنّه يريد أن يقضي أكبر مدةٍ يستطيعها متمشّياً في الهواء الطلق، حتى ابتعد عن ذلك الشارع.

أما في وسط شارع السّدر فقد وقفت حليمة مع زوجها وابنها وسُعدى في منتصف الطريق يرقُبون ما تركه تجمُّع الناس من مخلّفاتٍ باستياءٍ لم تنجح نشوة رؤية الموكب في جعلهم يتجاهلونه. قالت حليمة: "أنظروا إلى هذه الأقذار، لقد جعلت منظر شارعنا بشعاً." فقالت سُعدى بلا تردّد: "نعم، نعم." فقال عامر: "وقد تتجمع الفئران على بقايا الطعام فتحفر لها جُحوراً فتُقيم هنا إلى الأبد." فعلّقت سُعدى: "ما أسوأ ذلك." فأكمل عامر: "وقد تُصاب هذه الفئران بالطاعون فتصيب به سكّان هذا الحيّ." فقالت سُعدى: "ما أفظع ذلك!" فنظر الطفل إلى سُعدى وقال: "وقد يموت أبي وأمي بالطاعون فأصبح يتيماً." فهزت سُعدى رأسها معبّرةً عن تعاطفها معه فقال: "وقد يحدث ذلك لكلِّ أطفال المدينة." فانتابت سُعدى نوبة الصداع ثانيةً وقالت محتجّةً: "لا ينبغي إطلاقاً أن يُنظّف المكان للموكب ثم يترك بهذه الهيْئة لسكّانه." وفيما كانت سُعدى تقول ذلك مرّ بهم رجلٌ فقال مستهجناً كلامها: "ولكنَّ عُمّال التنظيف سينظفون المنطقة كلَّها خلال يومين." فقالت حليمة: "إذن ستتجمع الصراصير بدلاً من الفئران." فالتفت الطفل إلى أبيه وسأله: "ماذا تسبب الصراصير من الأمراض يا أبي." فقالت سُعدى: "ولماذا تسبِّب أمراضاً، ألا يكفي منظرها المرعب." فأجابت حليمة: "ولكنْ يظلّ الخطر قائماً، يجب أن

أدخل بيتي وأرشُّ أرضه بالزرنيخ." فنظرت إليْها سُعدى بثقةٍ كبيرةٍ وكأنّها تتلقّى وصفةً من طبيبٍ حاذقٍ ثم هزّت رأسها مؤيدةً وقالت: "نعم ينبغي أن نفعل ذلك." ثم دخلت إلى بيتها ودخل عامر وعائلته إلى بيتهم.

***

أخذ مختارٌ يسير وهو ما يزال مأخوذاً بما رآه في الموكب إلى أن اقترب من البحيرة التي جعلت مدينة السّديمة مكاناً مُختلفاً تأتيه القوافل من كل حدبٍ وصوْبٍ من أجلها، وابتسم في نفسه وهو يتذكّر ما يرويه الناس عن البحيرة. كان يُقال إنَّ من ينظر إلى البحيرة لا يرى صورته وإنّما يرى صورة الحيوان الذي يُشبهه في طبْعه وصفاته، فهذا يرى نفسه كبْشاً وذاك يرى نفسه طاووساً أو ذئباً أو أيّ حيوانٍ يماثله. ابتسم مختار ثانيةً إذ كان يظنّ أنَّ الفكرة أسخف من أن تُصدّق أو تُجارى، ولذلك لم يفكّر يوْماً في الوقوف أمامها طوال السنوات السبع التي قضاها في السّديمة، وكان يريد أن يكتفي في ذلك اليوم بأن يمرُّ بها من بعيدٍ ليستنشق الهواء الطّلق حولها. ولكنَّه ما إن اقترب أكثر من البحيرة حتّى سمع بكاء طفلةٍ صغيرةٍ أثار شفقته وعطفه عليْها فاقترب منها وسألها عمّا بها فقالت له إنّها حزينةٌ لأنّها نظرت في مياه البحيرة فرأت نفسها دجاجة. ضحك مختار من أعماقه ثم قال لها: "ولكنْ من المستحيل أن تكوني دجاجة، إنّك فتاة، طفلةٌ جميلة." فأكّدت له الطفلة بصوتٍ متقطّعٍ أنّها رأت نفسها دجاجةً وأن أصدقاءها رأوها معها وسخروا منها. فأمسك بيدها وقال لها: "حسناً، هيّا نذهب معاً وننظر ثانيةً في مياه البحيرة، وسأثبت لك أنّك مُخطئةً في تخيّل نفسك دجاجة." فمشت معه الطفلة وهي تمسح أدمُعها بينما هو ينظر إلى السماء لكيْ لا ترى الطفلة ضحكته التي يحاول كتمانها حتّى وصلا إلى البحيرة ووقفا بمحاذاة حافَّتها.

ظهرت مكان صورة الطفلة صورة دجاجةٍ فارتفع بكاؤها ثانيةً وهي تقول له: "أرأيت؟ لقد أخبرتك أنّني دجاجةٌ ولم تصدّقني!" ثم نزعت يدها من يده وانطلقت عائدةً وهي تبكي. ولكنَّ مختاراً لم يُعِرْها اهتماماً البتّة ولم يُحرِّك ساكناً بل تسمّر في مكانه. لقد كان مبهوراً بصورته التي انعكست على مياه البحيرةِ الصافية. لقد كانت صورة أسد: أسد بكلَّ سماته، أسد بكلِّ عظمته، أسد ينظر إلى الأعلى بشموخٍ وفخر. لم يصدِّق عيْنيْه. صرفَهما عن صورة الأسد، عن البحيرة كلّها، ثم نظر ثانيةً فإذا به يرى الأسد ثانيةً، فابتسم ابتسامة كبيرةً أفرغ فيها كلّ ابتهاجه ثم انطلق مُبتعداً عن البحيرة. ولكنَّه عاد ثانيةً وأخذ يتأمَّل صورة الأسد التي أسرته بجمالها حتى نخاع النخاع.

كانت رغبته لا تقاوم في إطلاع كلّ الناس على ما رأى على سطح البحيرة، لذلك فقد حاد عن طريق بيته وانطلق إلى بيت عمرو. وقبل أن يصل إلى المنعطف المؤدِّي إليْه انحرف إلى البيت الأبيض، بيت سلمى التي كان قد هجرها أشهراً ليُخبرها بما رأى. وأخذ ينقر زُجاج النافذة ذات الستار الأخضر نقراتٍ متواصلة. بالداخل كانت سلمى تُطرّز منديلاً جديداً، فلما سمعت النقر على النافذة وضعت منديلها وخيْطها جانباً ونهضت تفتح الستار. كان منظر وجه مختار المُبتسم جميلاً خلف زجاج النافذة بعد تلك الغيْبة الطويلة. ابتسمت له وهي تفتح زجاج النافذة الذي ما إن انفتح حتى قال مختار بصوتٍ مُفعمٍ بالبهجة:

- هل تعلمين ما أنا يا سلمى؟ إنّني أسد، لقد رأيت صورتي في البحيرة منذ قليل.

- ذهبت إلى البحيرة؟

لاحظ أنَّها لم تنبهر بالشّكل الذي كان يتخيَّله بل ظهر على وجهها تعبيرٌ حائرٌ صاحَب كلماتها التي خرجت فاترةً فقال لها:

- ما بك يا سلمى؟ ألم تسمعي ما قلت؟
- بل سمعت ولكنّي كنت أظنُّ أنّك ستسألني عن حالي.
- أعذريني، لقد أنساني الإنفعال أن أسأل... كيْف حالك؟
نظرت إليه سلمى في حيرة وقبل أن تجيب استرسل قائلاً:
- ولكن أليس أمراً عظيماً أن أكون أسداً؟
- بلى، جميلٌ أن تكون اسداً ولكن، هل أتيْت فقط لتخبرني أنّك أسد؟
ظهر على وجه مختار شيءٌ من الحرج وأجابها: "تعلمين أنّني أتذكَّرك في كلِّ المواقف."
فقالت سلمى بلا اكتراث:"نعم، أعلم.."

كان انفعال مختارٍ شديداً بحيث قلّل من قدرته على استيعاب ردود سلمى الفاترة التي لم ينتبه إلى شدّة فتورها إلّا عندما ابتعد عن نافذتها وأصبح في منتصف الطريق إلى بيت عمرو. وأدرك أنَّ سلمى عاتبةٌ عليْه جفاءه في الأشهر الأخيرة، ولكنَّ تفكيره فيها وقف عند ذلك الحدِّ عندما رأى بيت عمرو. وهناك أخبر مختار أصدقاءه بـ"أسديّته" بانفعالٍ شديد، ثم أخذ يستحثهم على المُضيِّ معه إلى البحيرة ليَروا صورته بأنفسهم قبل مغيب الشمس، ولكنَّهم نجحوا بعد جهدٍ في إقناعه بتأجيل الذهاب إلى الغد. فجلس أخيراً وأدرك كم كانت ساقاه بحاجةٍ إلى الراحة.

***

في اليوم التالي عرج مختار وأصدقاؤه على البحيرة بعد عودتهم من عند معلّمهم ما عدا عمرو الذي آثر أن يذهب إلى البيت. وبُهروا بصورة مختار بشكلٍ أضاف مزيداً من البهجة والفخر إليه، ثم تفرقوا كلٌّ إلى بيته. وفي موعد اجتماعهم اليوميّ، كان أول موضوعات حديثهم أسديَّة مختار. سأل

هيْثم وهو يرى سعادة مختار التي تشعّ بها عيناه: "ولكنْ ما ميزة الأسود؟" فرد عليْه مختار متسائلاً باستهجان: "ما ميزة الأسود؟ ألا تعلم ما هي ميزة الأسود؟ ألا تعلم أنَّ الأسد أقوى الحيوانات وأنّه سيِّدها جميعاً؟" قال عمرو بلا مبالاة: "وماذا في ذلك؟ الثوْر أيضاً قويّ." أجاب مختار مستاءً: "ولكنَّ الثوْر أرعن وأبله كما أنّه لا يسود الحيوانات." فقال عمرو: "ومن قال إنَّ الأسد يسود الحيوانات؟" نظر آدم إلى عمرو قائلاً: "من المعروف أنَّ الأسد يُسمى مَلك الغابة، ولا بدَّ أن يكون قد أظهر شيئاً من السيادة جعلت الناس يُسبغون عليه هذا اللقب." هزَّ مختار رأسه مؤيِّداً وهو ينظر إلى عمرو ليرى إجابته على تلك الكلمة ولكنَّ عَمراً بدا غيرَ مكترثٍ بما سمع فأجاب هيثم: "إنْ كان الأمر كذلك فبِئس المَلك هوَ وبئست السياسة سياسته." فسأل مختار باحتجاجٍ شديد: "لماذا؟" فرد هيثم: "لأن الضعيف لا ينتصف من القويِّ في الغابة." فقال مختار: "ولكنَّ الغابة قوانينها مختلفة. لو حُظر افتراس الأرانب لماتت الثعالب ولو مُنع افتراس الغزلان لماتت النمور. كلٌ من تلك المخلوقات غذاءٌ لمخلوقٍ آخر، ذلك هو قانون الغابة والطبيعة عموماً وليس للأسد أن يُغيّر فيه أو يبدّل." هزَّ آدم وهيثم رؤوسهما معبّرَيْن عن تأييدهما التام بينما قال دُريدٍ بحماسٍ شديد: "إنّه مُحقٌّ يا عمرو في كلِّ كلمةٍ نطق بها! ولم يظهر في البحيرة على هيْئة أسدٍ إلّا وهو مرتبط به بالشبه وكلّ شيء، ألم تر حماسَه في الدّفاع عن الأسد؟" فقال عمرو: "إنّه محقٌّ فيما قاله عن قانون الطبيعة في التغذية، ولكنّ الأسد لم يضع تلك القوانين، ولم يُنصّبه مَلكاً على الغابة إلا خيال البشر." فاندفع مختار قائلاً: "لا يهمّ من نصّب الأسد ملكاً على الغابة، المُهم هو أنّه ملك." ثم ابتسم في نشوةٍ وأردف: "هل يا ترى يعني ذلك أنّني أستحقُّ أن أكون مَلكاً؟" أجابه آدم ضاحكاً: "لم لا!" فهَمْهَمَ عمرو: "ها قد بدأت المشاكل."

بعد قليلٍ تساءل مختار فجأة: "ولكنْ ما هي حقيقة المَلك.. أعني ملِكَنا، ما هي صورته في البحيرة، هل هو أسد؟" أجاب آدم: "لم يظهر أحدٌ على هيئة أسدٍ من قبل وإلا كُنّا سمعنا به." فقال هيثم: "صحيح، أكثر الناس يظهرون على هيْئة أغنامٍ وثعالب وذئاب..." فقال دُريدٍ ضاحكاً: "نعم، كما ظهرنا اليوم!" فأكمل دريد:"وقد ظهرت أرانب وبِغال ونعامٍ ولكنْ لم يظهر أسدٌ قبل الآن." نظر عمرو إلى مختار وقال له بإخلاص: "ولذلك عليْك أن تتوخى الحذر يا مختار... لا ينبغي لهذا الأمر أن يعلمه الناس وإلّا فقد تواجه مشاكل أنت في غنىً عنها." فردّ مختار باندفاع: "مشاكل؟ تعني أنّ هذا الخبر قد يصل إلى المَلك فيحاول الإنتقام مني..." فقاطعه عمرو بسرعة: "لا تُسرف في الخيال يا مختار ولا تَرَ نفسك بحجمٍ أكبر من حجمك... كلّ ما أريده منك هو أن تحتفظ بهذا الأمر لنفسك ولا تتحدث عنه مع غيرنا... والأفضل لك أن تنساه نِهائياً وتهتمَّ بتحقيق مطامِحك التي جئت إلى هذه المدينة من أجلها." فقال مختار ساهماً: "أمرك... لن أخبر أحداً بذلك." ثم تذكَّر الجزء الثاني من نصيحة عمرو فأردف: "مع أنَّ مطامحي لم تكن محدَّدةً في يومٍ من الأيام ولم يكن لها حجمٌ في خيالي." تنهّد عمرو بقلقٍ وقال: "لا تحدِّدها ولكنْ إنس صورة الأسد، تذكّر أنّه حيوانٌ كباقي الحيوانات من دون صفات العظمة التي تُسبِغها عليْه أوهام البشر..." ثم أعاد تحذيره له:"ولا تخبر أحداً بذلك." أخذ مختار يفكِّر بعمقٍ في المسألة ووجد أنَّ عَمْراً مُحقّ في تحذيره من إشاعة الخبر فتمتم: "حسناً، ولكنّي أخبرت سلمى... أظنُّ أنَّني يجب أن أحذّرها من ذكره لأحد." ثم قام ساهِماً وغادر المجموعة بيْنما علا ملامح عمرو شيءٌ من الضيق.

كانت سلمى جالسةً تُطرّز منديلاً أمام النافذة وهي ترتقب مجيء مختار عندما سمعت نقرةً خفيفةً على زجاج النافذة قامت على إثرها وفتحت النافذة

لترى وجهاً ساهماً يهمس لها: "سلمى، لا تخبري أحداً بما أخبرتك به أمس... إنّه سرّ." استغربت سلمى وسألت: "أخبر بماذا؟" أجاب مختار وقد أحبطه نسيان سلمى لذلك الخبر الهام: "كيف تنسين شيْئاً هامًّاً مثل ظهوري أسداً في البحيرة!" فردّت سلمى في الحال وقد تذكرت: "فهمت." ثم أردفت في تردد: "هل جئت فقط لتخبرني بذلك؟" فقال بلهجةٍ جادّة: "نعم، إنّه أمرٌ هامٌّ جداً يا سلمى، قد تحدث لي مشاكل..." فقاطعته قائلة: "اطمئن يا مختار، لن أخبر أحداً بذلك..." ثم أضافت بعدم اهتمامٍ: "وما كنت فاعلة." فردّ بامتنان: "شكراً... تعلمين أنّني دائماً أثِقُ..." ولم يكمل جملته فقد أوصدت سلمى النافذة وأسدلت الستار مُعلنةً نهاية ذلك اللقاء. كان ينبغي من مختار أن يعتبر ذلك سوء أدبٍ ويغضب من سلمى بسببه ويعبّر عن ذلك الغضب في حينه كعادته، ولكنْ كان ذهنه مشغولاً بما هو أهمّ منه، لذلك فقد استدار بهدوءٍ واتّخذ طريقه إلى بيته.

Delalkhalifa.com